١٧ آب ١٩٥٤ توقف الزمن لحظة ، فقرر امرا وترك للايام ان تنضجه ، ثم استأنف سيره . هل تم هذا القرار بمعزل عني ؟ هل انا التي سعيت اليه بمطلق ارادتي ، أم اننا تواطأنا عليه ؟

كل ما اعرفه ان والدي سألني ، صباح ذلك اليوم : « لماذا اخترت هذا اليوم بالذات للنزول الى العاصمة ؟ ان الحر هنا في المصيف لا يطاق فكيف الحال في بيروت ؟ » كل ما اجبت به ، انا التي لم تتمرد يوما ، ولم تخالف رأيا عائليا ، انني جمعت اوراقي ، وتوجهت الى العاصمة .

كنت اسعى لتحقيق حلمي في الالتحاق بالجامعة التي اعتقدت انها ستكون منطلقا لتفتح امكانياتي ، لقد صممت ، منذ سنوات ، وعملت بصبر وجهد ، ضمن نطاق الدراسة وخارجها ، على ان اصبح كاتبة . كنت اعي يومها ما ازيد .

في السيارة التي اقلتني الى العاصمة ، التقيت بطريق الصدفة ، بشاعر لبناني كبير، كانت تربطه بأسرتي علاقة صداقة واحترام . وكانت قد بلغته اصداء تفوقي الدراسي ، وخاصة في مادة الادب . وهذا النجاح وضع عائلتي امام مسؤولياتها : ينبغي ان تتابع « البنت » دراستها .. ان تنتقل الى العاصمة .. على ان الانتقال الى العاصمة معناه ، بالنسبة لي ، انا التي لم اغادر مدينتي الا ساعات ، وعشت في جو عائلي مكبوت ومحافظ ـ معناه ان اقتلع من جذوري ، وان اقذف في اجواء « غير محمودة العواقب » .

في السيارة ، تحدثنا طويلا عن الادب ومشاكله . ونصحني الشاعر بالا اتخصص في مادة الادب العربي لانه ، في نظره ، لا قيمة حقيقية له ، وينبغي نسفه ، مادة وشكلا وحرفا . ثم اننا غير مسؤولين عن تطوره ولا علاقة لنا به . ينبغي ان نعود الى تراثنا الفينيقي الحقيقي ، والى ادبنا القديم واساطيرنا الجبلية ، فالبحر والجبل مادتا تراثنا ، وليست الصحراء . وعلى ذلك ، فان على كل موهبة لبنانية ، خاصة اذا كانت طرية العود (مثلي) ان تسهم في خلق لغة جديدة ، بأسلوب جديد ، بحرف عالمي جديد . فنحن امة مميزة ، ذات حضارة عريقة ، تختلف عن البداوة وعن من اسموهم عربا ..

كنت استمع اليه ، ولم يكن لهذه الافكار اصداء مستجيبة لدي . فقد احببت هذا الادب « الصحراوي » ووجدت فيه صورة لذاتي وعواطفي وافكاري . ومن خلال اطلاعي على الادب الفرنسي ، ومقارنتي اياه مع ادبنا ، اقتنعت انه ادب حضاري ، عريق ، استطاع في لحظات التفتح ، ان ينقل رسالة هي من اعظم الرسالات الانسانية. وان ألثه ظروف كبا فيها ، فليس المرض في فكره ، ولا في لغته ، وانما في الظروف التاريخية التي فرضت عليه .

ومن الجو العائلي الذي عشت فيه ، سواء من الناحية الدينية او الادبية ، كنت احس بذاتي تخرج من حدودها الاقليمية الضيقة وتتمدد لتتلاقى مع مفهوم للعروبة منفتح وشامل .

كان هذا الشعور « العربي » شعورا عاديا ومألوفا. وحين سمعت كلام الشاعر اجفلت واجتاحتني موجة من الغضب والرفض ..

ترجلت من السيارة ، متوجهة الى مكتبة كنت اتردد اليها لشراء كتب فرنسية . وقع نظري على مجلة ، سبق لي ان قرأت بعضا من اعدادها . احسست براحة . سألت الموظف اين تقع ادارة المجلة . فخرج يشير بأصبعه: هناك ، في اول هذا الشارع .

* * *

وقفت امام الباب ، واجلت نظري . كانت وجوه ثلاثة تنظر الي . اصبت برهبة . ولكنني تشجعت . سألت عن رئيس التحرير . نظروا فيما بينهم ، وابتسموا . قام احدهم وقال، وهو يتقدمني الى غرفة مجاورة :« انا هو » .

وجلس خلف مكتبه . وأرسل الي نظرات متسائلة .. ظللت لحظات صامتة ، واحسست بجو ثقيل يربض على صدري . وكأنه احس بضيقي فكلمني مرحبا ، لم ارد. سألني ان كان لدي مادة اريد تقديمها للمجلة . هززت رأسي بالنفي. تابع :« هل تريدين اشتراكا بالمجلة؟» ماذا اجيب ؟ لست لهذا الامر قصدته . وساءلت نفسي : ماذا اريد بالضبط ، ولماذا جئت الى هنا ؟ علا الاحمرار وجهي، وارتبكت . راودتني فكرة الهروب. الآن فقط ، اعي خطورة ما اقدمت عليه . رفعت رأسي اليه . فاجأته يحدق بي . واذ التقت نظراتنا الدهشة والمستفهمة اخذ يهز رأسه يمينا وشمالا وهو يضحك . قام من خلف مكتبه وجلس على مقعد قبالتي . قال لي : لقد اخافك رئيس التحرير ؟ (كنت على يقين بانه لم يكن يريد بي سوءا) سأساعدك في الكلام . وكاستاذ يمتحن تلميذا نسي درسه راح يطرح علي اسئلة ـ مفاتيح . كنت اجيب على بعضها، فيما الاحظ ان البعض الآخر لم يكن يعنيه . كان يفاجأ بليني وبفجاجتي . ولقد صير علي . وحين اجبته اين اسكن علق مازحا : انت اذن من بلدة الشاعر (...) ولم ادعه يكمل ، قفزت من مقعدي ثم هبطت كطفل مرح .

عايدة مطرجي إدريس

واخذت احدثه ، بسرعة وحماس كتلميذ حفظ درسه ولكنه نسي اول كلمة منه . لا ، لست من بلدته ، ولكني اقيم فيها بحكم وظيفة والدي . ان جذوري تمتد هناك ، في طرابلس الفيحاء ، احدى قلاع العروبة الصامدة في لبنان . تركني اتكلم ، ولم يقاطعني . لعله خشي ان يعاودني انبكم قبل ان اتم فكرتي . حدثته عن يومي هذا، عن المي لاحتقار العالم لنا ، لنعته ايانا بالمتوحشين وبالمتخلفين ، عن عدم ايماننا بانفسنا ..

كان مطرقا . وحين نظرت اليه ، لاحظت انه كان يأخذ كلامي مأخذ الجد . وحين سألته ماذا ينبغي ان نفعل ، قال : علينا ان نناضل . ان قضيتنا شاقة ، وان اعداءنا كثر ،في الداخل وفي الخارج،وطريقنا شائك وطويل . ولكنه كان يؤمن باننا سنصل . وقال لي انه لهذه الغاية يصدر مجلته .

قام وقدم لي نسخة . قلبتها . اكد لي ان باستطاعتي الاحتفاظ بها ، واذا اردت أرسلها لي . سألني عن عنواني . حين هممت بأن أجيب انتصبت امامي قافلة من الاسئلة ينبغي ان اجيب عليها حين تصلني المجلة الى البيت . قلت بحسم : لا داعي لذلك . اجفلته . ولكني عللت هذا بانني سوف استقر هنا ، في اول العام الدراسي . سألني باهتمام : اين ستلتحقين؟ قلت : سأقرر اليوم : اما الادب الفرنسي او الفلسفة اوالادب العربي . قال : الفلسفة ، ربما تأسبتك اكثر . قلت ، في هذه الحالة سألتحق بالمعهد الفلاني . قال وهو يشير بيده : عظيم . انه قريب جدا. وحين وقفت اريد الانصراف . قال لي: مهلا . سأقدم لك روايتي . وامسك قلمه وانتظر ان اذكر له اسمي . ولكنني انصرفت من غير ان أودعه . ناداني. قلت : سآخذها بلا اهداء . قال بغضب : يمكنك شراؤها من السوق اذن . ثم تراجع وأردف بلين : تفضلي . ولكن يده ظلت ملتصقة بصفحتها الاولى وظل القلم بين اصابعه. قلت وانا اقترب من مكتبه : قل لي قبل ذلك ماذا تريد ان تكتب . قال : هذا يتعلق بي . وآذ رأى الامتقاع في وجهي قال : اهداء للانسة ، اليس لك اسم ؟ وكتب اسمي على نسخة من اول طبعة من « الحي اللاتيني » .

اخذت الكتاب . ما ازال احتفظ به . لقد مرت على ذاكرتي عشرات التواريخ ، ونسيتها . وظل ١٧ آب ١٩٥٤ مستعصيا على النسيان ، كشهادة ميلاد ثانية .

قبل ان اغادر مكتبه ، سألني ان كنت اريد المساهمة في تحرير المجلة ، واعطاني قصة قصيرة للترجمة . حملت اوراقي وكتابي ومشيت . واذ وصلت الباب سألني: « متى تعودين ؟ »

وعدت بعد شهر . وحين رآني شع فرح حقيقي من عينيه . بادرني على الفور : لقد تأخرت . اجبته : لم يكن لدي سبب للمجيء من قبل . احتدت لهجته وقال : ولماذا جئت اليوم اذن ؟ قلت : انه آخر يوم للتسجيل . علق : ولماذا تتركين البت حتى آخر يوم ؟

اجبت بأنني كنت افكر . فأنـــا لا احب ان اقرر مصير دراستي على عجل . سألني ساخرا : وهل كل قراراتك تطلب مثل هذه الروية والتفكير ؟ لم اجد في هذا السؤال ما يثير اهتمامي ، فلم اعلق عليه . وانما قدمت له اوراقا ووضعتها على مكتبه . وظللت واقفة قبالتـــه . قلبها . قال : اولا الخط رديء جدا . ثانيا ينبغي الا تكتبي عـــلى قفا الورقة ، فليس هنا مجال الاقتصاد . ثالثا (قالهـا بغضب) : انك تخطئين في النحو . واستمر في القراءة . كدت ابكي . منذ شهر وانا اعمل جاهدة في ترجمة هـذه القصـــة . لم يسبق لي قط ان تعاملت مع نص بهذا الطول وبتلك الصعوبة الناجمة عن ضبابيـــــة تلف جو القصة واسلوبها . قارن بين النص والترجمـــة ، وعلق : انك تفهمين الاصل . هذه خطوة تبشر . وابعد الاوراق قائلا : سأنظر فيها فيما بعد . ولكن كان يهمني انا ان يبت فيها الآن . قلت : الملاحظة الاولى والثانية لا اهمية لهما . اما الثالثة فليست خطرة الى هذا الحد . قاطعني : بل اخطر مما تتصورين . انها قضية لا يمكن التساهل فيهـا على الاطلاق . ان قواعد اللغة هي دعائمها . فاذا كانت الدعائم هشة انهار البناء . ينبغي أن نبني على اسس سليمـة ، ان نعود الى الاصول ، الى الجذور . قلت : ليس اللغوي بالضرورة اديبا . قال : ولكن لا يمكـن للاديب ان يكـون اديبا اذا لم يتصالح مع اللغوي .

* * *

فوجئت ذات مساء ، وكـــانت دراستي ليلية ، بالمديرة تستدعيني لتسلمني رسالة . اخذتهـــا فوجدت فيها سطرا واحدا وتوقيعـــا . لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذا التوقيع. وتذكرت :بلى،مرة واحدة. اما السطر فكان يقول: « لماذا لم تأتي .انـنـــيانتظرك » . طويـت الرسالة . وحرت اين اضعها . ان ضبطها احد من اهلي فسيعلقون : لقد بدأ الخير منذ الايام الاولى .

لم اذهب . كان لديّ شعور خفي بأنني قد اتـورط في امر لن يكون في نهاية الامر لصالح دراستي . ينبغي الا افكر في الوقت الحاضر على الاقل بنشاط عدا النشاط الاكاديمي . كان هذا هو قراري النهـائي . ولكنني وانـا مغادرة معهدي رأيته . ناداني وقال : انها صدفة جميلة . شككت في الامر ، وقد اكدت لي ذلك ابتسامته . فـــلم يكن يريد ان يكذب علي . سألته : ماذا تريد مني ؟ قال : يمكننا ان نتحدث . قلت : الوقت متأخر واريد أن اعـود الى البيت . سألني اين اقطن وعلق : انها الطريق نفسهـا. رافقني . لم يحدثني عن نفسه ، ولم يسألني من امري شيئا . كان يتكلم عن مجلته ، وعن الحملة المركزة التـي تستهدفها في الداخل وفي الخارج ، وعن المضايقات التي تلحق شخصيا به . قال ولكنه لن يتراجـع . وسـوف يقف ، ولو ظل وحيدا ويصمد . علقت ، وكنت قد قرأت افتتاحية العدد الاول من جديد : ولكن طموحات المجـــلة اكبر من امكانياتها . وليس وراءها ، كما ذكرت ، مـــن يدعمها . فهل يمكنك ان تستمر طويلا ؟ اجابني ، وقـد ارتاحت نفسـه ، بأن الامر يتوقف على عزمه وعلى قراره .

* * *

كنا نلتقي بين فترة واخرى عن طريق « الصدفة » دائما . كان يحدثني عن مشاريعه ، عن اعـــداد خاصة ينوي اصدارها ، عن مقال نشره ، عن كتـاب يترجمه ، عن آخر ينفذه وعن تجمع ادبي يسهم به . ذاك كان محور تفكيره ، وهذا هو عالمه : عالم منسجم ، لا ازدواجية فيه، وان كان عالما مشحونا ، قلقا ، مضطربا .

فكرت ذات يوم ، بعد حديث دار بيننا : ما شأنـي بهذا العالم ؟ كنا في اوائل تشرين عام ١٩٥٤ حين شكا لي من ان مجلته تمنع في العراق . قال : تصوري اية شروط تريد ان تفرضها الرقابة : « ان لا ننشر لاي شاعر عراقي الا ما كان متعلقا بالثقافة والادب فقط ، الإبتعاد عن نشر الرسائل والقصائد ذات الصبغة «الثورجية» او التقدمية، الابتعـاد عن نشر اي شيء يتعلق بالعمـــل والعمال » . سألته بشرود : وماذا ستفعل ؟ اجـــاب بغضب : مـاذا سأفعل ؟ سأرد بالطبع . واخرج من جيبه اوراقا وقرأ : « هذا الارهاب الفكري » . وحين وصـــــل الى قوله : « لا بد ان القارىء يضحك الآن كما ضحكناويتساءل : اذا لم تتحدث « الآداب » عن العمل والعمال ولم تنشر قصائد وطنية « ثورجية » وتقدمية ، فعلام تصدر ولماذا تواصل جهودها ؟ اتنتظر حكومة العراق ، واية حكومة عربيـــة اخرى ، أن تخصص « الآداب » صفحاتها لتمجيد الاوضاع القائمة ، ولا سيما في العراق ، ولكيل الثنـــاء لحكومة تخنق الحريات وتعطل الصحف بلا تمييز وتهدد بتجريـد الجنسية و ... » كنت استمع اليه مصعوقة . هـــذا الشاب الرقيق ، الدمث ، كيف تحول الـــى هذا العنف والصرامة ؟ اية طبيعة هي طبيعته الحقيقية ؟ وتحـاورت مع نفسي لدقائق . وتوصلت الى تلك القناعة : ما شأني بهذا العالم ، ولماذا اقحم نفسي فيه ؟ وقدرت ذاتـي ، فوجدت هذا العالم اكبر مني واشمل من هموم صغيرة تراودني . انه ينتمي الى عالم الكبار ، وانا ما ازال طفلة . وعجبت كيف تعلق بي .

* * *

تأخر استاذنا ، فتأخرت ساعة الدراسة . وحيـن خرجت من المعهد ، متوجهة الـــى موقف السيارات ، لاحظت ان « مكتبه » كان ما يزال مضاء . انه هنـاك . تابعت سيري . ولكن امطارا غزيرة هطلت فجـأة فـوق رأسي ، وهبت عاصفة من الريح الثلجيـــة جعلتني غير قادرة على المضي . كان الماء عند تقاطع الارصفة يدخل في قدمي ، وكان شعري الطويل يسيل مع المياه . حـاولت الاحتماء بأي مكان . ولكن المحلات كانت مغلقة والابنيـة

كلها بلا رفوف . انتظرت سيارة تحت المطر . فلم تمر . خطرت ببالي فكرة : سأنتظر عند مدخل بنايته ، الذي كان بابها ما يزال مفتوحا ، حتى أعثر على سيارة .

ما كدت أصل ، حتى سمعت وقع أقدام خلفي . تملكني ذعر حقيقي . كدت أبكي . الدنيا ليل ، وانا غريبة في هذه المدينة وخائفة والبرد ينفذ الى عظامي فتأخذني موجة من الارتجاف . لم التفت الى الوراء . واقتحمت مخيلتي صور الطفولة المليئة بأشباح الرعب والجريمة . أخفيت رأسي ، واختصرت جسدي . فجأة تقدم وجهه مني ، قال متعجبا : انت ؟ ووضع يده على شعري . قال : انك مبتلة حتى الجلد . احسست بيده كيد أمي الحنون . حدّق الي وسألني : انت تبكين ؟ كنت عاجزة عن الكلام . أمسك بيدي وقال : تعالي استريحي قليلا . رفضت . انه وحده . والدنيا ليل . قال : ولكنك ستمرضين ! فكرت . ليس هذا مهما . تركني ووقف على الرصيف . انتظر بعض الوقت . لم تمر أية سيارة . وكان المطر ما يزال يتدفق كالشلالات . ناديته : ستبتل انت أيضا . قال : ما العمل ؟ وحزم أمره : تعالي . وتقدمني الى المصعد . لم الحق به . سألني : أنت خائفة ؟ لم أجب . كنت أرتجف بردا وضعفا وخوفا .

في مكتبه ، قرّب المدفأة الكهربائية مني . ظللت واقفة . كانت الابخرة تتصاعد من ثوبي وتغلفني بجو ضبابي . انحنيت قليلا وجففت يدي . أحسست بدفء يتسرب اليّ . هذه المدفأة هي كل عالمي في هذه اللحظات .

ثم تنبهت له . كان واقفا يرتب أوراقه . فأغضضت طرفي . بعد لحظات نظرت اليه . كان أمام النافذة ينظر الى الخارج . فجففت شعري . ثم رأيته يذرع الغرفة رواحا ومجيئا . لاح لي بطله اتباريسي فعاودني الخوف . ازال الشك من عينيّ قائلا : يبدو ان المطر لن يتوقف . يجب ان نتدبر امرنا .

خرجت قبله . ناداني ضاحكا وقد افرحته براءتي : يمكنك ان تأخذي هذه المظلة . ثم أردف : من الافضل ان أوصلك . وسرنا معا ، تحت مظلة واحدة . ثم خلع معطفه ووضعه على كتفي ليحميني . رفعت اليه عينيّ لاشكره : ستبرد انت ، قلت . قال:انك مدهشة ، طفلة مدهشة . ولامست يده المشتعلة وجهي برفق . كان احساس غريزي يفاجئني : انه يكبت نفسه . لم يشأ ان يستغل ضعفي وخوفي .

ومضيت الى جانبه تحت المظلة ، يراودني شعور انني سأمشي طويلا الى جانبه ، وتحت مظلته ...

* * *

لم يكن لديّ نهارا اي عمل اقوم به . فقد اردت ان أصرف نشاطي كله في نطاق المطالعة والدراسة . اقترح عليّ ذات مرة ان أساعده . لم أجب . وحين نظرت اليه ، أحسست بعوالم من الجليد تتكسر في أعماقي ، وبتواصل أثيري اكتشفت ما يجول في نفسه وما يضطرب في ذاتي . كان حبا قويا جارفا نما ببطء وبخفاء ولكنه اللحظة ينفجر .

* * *

رأيته هذا المساء غارقا بين أوراقه . حييته فهز رأسه وتابع قراءته . انتظرته وانا اشغل نفسي بكتاب . ثم ما لبثت ان احسست بدموع في عينيّ . وفكرت . ان عالمه لا يسعني . وأستنتجت ان حبه لي كان عابرا . وقارنت بين هذا الواقع ـ الحب وبين الحب الذي صوره في رواياته . لعل هذا هو الحب الذي أحببته فيه والذي ينصرف فيه العاشق الى حبيبه فلا يشغله عنه اي همّ . وساهم في قناعتي جو الروايات الذي عشته حلما وتمنيته واقعا . ولربما حين ارتضيت حبه وتمت خطبتنا ، كانت هذه الرغبة اللاواعية في أعماقي هي دافعي اليه .

أمسك وجهي بين يديه وقبلني وهو يقول : لقد ظلمتك يا صغيرتي . ولكنها حياتي ، ولا مجال للتخلي عنها . الا يمكنك أن تتكيفي معها ؟ كنت أريد ان اقول له : اما انا ، واما هذه الاوراق . ولكن صوته كان صادقا ، مكشوفا ، وكان مع حسمه حنونا . وتراءت لي حياتي . كانت آفاقها ضبابية ، غائمة ، وكانت الاوهام والخيالات ترسم واقعها ولا تحدده . افهمني ان المجلة تن تكون منافسة لي . فهي طفلة ، ما تزال في سنواتها الاولى . واما المستقبل ، فسنقطعه معا ، وبامكاننا ان نعتبر المجلة أولى ثمرات التقائنا . ستكون بنتنا الاولى . الا تحبين الاطفال ؟

* * *

كانت « الآداب » تحتل غرفة من بيتنا . فامتزجت بحياتنا اليومية وامتزجنا بها . كان باستطاعته أن يعمل حتى ساعات متأخرة من الليل احيانا ، واحيانا أخرى كنت أراه جالسا خلف مكتبه قبل طلوع الفجر . وكنت انا اتدرب لمساعدته .

كانت امكانياتنا المادية ضئيلة : ما يربحه من ساعات قليلة من التدريس أو من ترجمة بعض كتب او القاء بعض الاحاديث في الاذاعات العربية . ومردود بسيط من كتبه . ولم تكن المجلة تعود علينا بأكثر من سد نفقاتها . وكل ما كان بامكاننا أن نفعله ، في هذا الظرف ، ان نعتصر النفقات حتى أصبحت جزءا من مصروفنا ، جزءا من خبزنا .

ولكن المشكلة كانت تتفاقم كلما ازدادت مسؤولياتنا العائلية ، وكلما ازداد المنع في البلاد العربية . وكنا اكثر ما نتعرض له في العراق . كانت سوقا رئيسية . وكان كثير من كتابنا وقرائنا هناك . وكان القمع والارهاب

يجثم في كل مكان . ومن اقبية التعذيب ، ومن خلف السجون ، ومن كل المنافي ، كانت تصلنا قصائد مهربة أو قصص أو مقالات . وحين كنت أعترض على نشر بعضها كان يجيب : لن اهادن . لن اخون هذه الاصوات . ينبغي أن نكون على مستوى تضحياتها ، أن نكون صدى لها حتى آخر مكان تصله « الآداب » .

كنا ننشر ونغامر . وكان الارهاب يحول بيننا وبين ترجيعات هذه الاصوات . ولكن لنعترف انه ، حين كانت تصل ساعة تسديد الفواتير ، كان الزهو يغادره ، وكان هم حقيقي يربض على صدره ، فأشاركه اياه .

وجاءنا اقتراح من بعض اصدقاء لنا من العراق (١) . كانوا يريدون أن تصلهم المجلة . قال بعضهم اذا لم يكن بالامكان توصيل أفكاركم مئة بالمئة ، فمن الافضل أن نقنع بالتسعين . واقترحوا حلا : يمكننا حذف ما يمنعها ، كتدبير مؤقت . ولكنه رفضه اولا . واعترف انني الححت عليه الحاحا شديدا حتى وافق على مضض ،اذ رأى انه لم يكن امامنا اي منفذ ، والديون تتراكم وترهقنا ، الا اغلاق المجلة . وكان هذا الامر مستحيلا بالنسبة له . وكأن تخلي « الآداب » ايضا عن صوتها الحقيقي يعادل احتجابها . كانت المعادلة صعبة . وللخروج من المأزق ، ارتأينا أن تظل « الآداب » تصدر بحجمها الطبيعي الذي ترسل نسخ منه الى العراق، بينما نتحمل اضافة ملزمتين ينشر فيهما ما كان مفروضا أن يوزع بين صفحات العدد ، مما يشكل المادة التي قد تؤدي الى المنع . ولكن ان حلت هذه المشكلة ، جزئيا على الصعيد المادي ، لفترة قصيرة ، لا تتجاوز ثلاثة أعداد أو اربعة ، فانها قد خلقت لنا أزمات نفسية حادة . لم يكن مقتنعا . وكان يحس نفسه مجزا . وتفاقم قلقه حتى تحول الى ارق . كنت استيقظ احيانا فأجده جالسا في سريره يفكر ، أو ذارعا الغرفة بعصبية. ثم لم يعد باستطاعته أن يتحمل . ولم يعد السكوت ممكنا والارهاب يتفاقم في العراق خاصة . قال لي : سنواجه السفاحين . وتوالت مواد « الآداب » مستنكرة ، منددة ، داعية للثورة ، محملة بأصوات الثوار . سدت في وجهها الاسباب العادية ، ولكن روحها كانت تتسرب حتى السجون . كنا نقطع بعض القصائد أو القصص ، ونرسلها قصاصات عبر رسائل خاصة او مع أصدقاء ، فيضيع بعضها ، ويصل بعضها الآخر فتنسخ وتوزع كمنشورات سرية . وحين كان يقرأ رسائل الاصدقاء مشيدة بدور « الآداب » كانت سعادة حقيقية تغمره ، وكانت الحياة آنذاك تستحق ، في نظره ، أن تعاش .

كانت التجربة قاسية . وبلغ من شدة تأثره بها أن عقد بينه وبين نفسه اتفاقا لم يحد عنه منذ ذلك الوقت : لن يهادن ، لن يراوغ ، سيقول الحقيقة وينشرها مهما كان الثمن ، وسيكون بجانب الاديب الحقيقي وبجانب حريته وحرية وطنه الكبير . فاذا صادف أن ترافقت سلطة قومية مع خطواته كان موقفه منها ايجابيا ، والا فانه بشكل حاسم مع الاديب ضد السلطة . هذا القرار لم يترك لي يوما فرصة لاناقشه فيه ، ولم يترك مجالا لاي نداء أو ضغط من قبل أصدقائه ليتصرف حسب الظروف وبتكتيك . كان قاطعا . كل الحقيقة . انها لا تتجزأ ، وأيا كانت الظروف . ان الفكر مبدئي . أما التكتيك فهو عمل السياسيين المحترفين . ولكي يحافظ على هذه المبدئية في التوجه قال لي : ستنصرفين انت لشؤون المجلة نهارا ، وانا سألتحق بالتدريس ، وأتابع أمرها في الليل . لن ادع « الآداب » تكون مورد رزقنا . بل ويمكننا أن ننفق عليها حتى نجتاز هذا الظرف . لن أكون عبدا لخبزي .

كان يستيقظ باكرا جدا. ينظم أوراقه ويقرأ مادة أو يصححها . واذ تحين الساعة السابعة يستقل سيارة ويتوجه لتدريس التعريب في معهد أنشأه الفرنسيون في قرية لبنانية لتدريب بعض الموظفين الفرنسيين على اللغة العربية . ولم يكن يعود الا ظهرا .

لكنه لم يلبث قليلا حتى قال لي : ليست لهذه الحياة خلقت . لم يكن يحب التدريس . بيد انه كان يعتبره عملا شريفا . كان ينسجم مع اهدافه . كان عليه أن يحدث تلاميذه بالعربية . كان بعضهم يتعاطف مع قضيتنا . والبعض الآخر يحاول أن يقتنع ، فيما يقف فريق مناهض لهذا الاستاذ الذي يتجاوز مهمته . ولكن الامور كانت تمشي كما يقولون . وذات يوم ، جاء ثائر الاعصاب مضطربا . لم أسأله ما به . قال بأسى : كان عليّ الا أرتبط بأسرة لاكون حرا . وأجاب نفسه : ولكن ذلك كان يكون لا بشريا ولا انسانيا . كان متعلقا بأسرته . وكان يرى فيها امتدادا لذاته وتعويضا لنضاله في الحياة، يركن اليها ، فتتسرب اليه ساعات من السعادة والامل في صحراء هذا العالم المضطرب . وسألني ان كنت قد سمعت بأنباء العدوان الثلاثي . قلت : أجل . قال : وما تتوقعين أن يكون موقفي ؟ قلت : أن تترك عملك . قال : هذا ما فعلته بالضبط . لقد قدمت استقالتي . لا مبرر لعملي بعد . لقد نسف العدوان الثلاثي كل أمل . وهؤلاء الذين أدرّسهم يحملون وجوه من يقتلون ابناء قومي وأمتي . حاولت أن أناقشه في بعض الظلال . ولكنه رفض الاستماع . كان حاسما . ان أي تردد خيانة . دخل مكتبه وراح يخطط لعدد يندد فيه بالاستعمار الفرنسي ويشيد ببطولة المواجهة العربية ويدعو أصدقاءه لعقد اجتماعات طارئة لمساندة القضية .

بعد أيام أتاه أحد الطلبة . أبلغه ان مدير المعهد — وهو مستشرق يحترمه — قد علق الدروس ، انسجاما

---

(١) على رأسهم بدر شاكر السياب . انظر رسالة له بهذا المعنى في كتاب « رسائل بدر شاكر السياب » جمع ماجد السامرائي ، منشورات دار الطليعة .

مع الروح العامة التي دفعته لانشائه . كان هذا الطالب يدعى عبد الله ، وهو من اصل جزائري ، وكان يعمل في الجيش الفرنسي ، ويحدثه عن بلاده التي لم يزرها ، عن حنينه اليها ، عن ثورة لا بد لها يوما أن تنتصر ، عن رغبته في الالتحاق بها ، عن عجزه هذا القاتل . قال له : جئت لاودعك . ان آلامي لم تعد تحتمل . لقد ساعدت انت في اشعالها . سأترك اسرتي وسألتحق بهم . سأعود الى جبال وهران .

كان وداعا مؤثرا . وهو يصافحه ، وعده أن يكون دوما الى جانبه ، أن تظل مجلته دعما لثورته ، وتنديدا بالمستعمر . وكانت « الآداب » قد تبنت الثورة من قبل بفضل قراءاتنا وبفضل ما امدنا به كتابنا واصدقاؤنا الجزائريون من معلومات وحقائق . وفيما كانت الثورة تتقدم ، كانت « الآداب » عبر قصائد شعرائها ، تغني مع الشعب العربي اجمل ملحمة من ملاحمه .

وانسجاما مع ذاته ، وعلى صعيد واقعي ، انضم الى الجبهة الشعبية لنصرة الجزائر فكان سكرتيرا لها . وراح ، مع رفاق له ، يبشر بالثورة ويدعو لمساندتها .

ـ لقد حررت نفسي . فحررت مجلتي .

وحين اعلنت الجزائر استقلالها ، دعي الى أول حفلة تقام هناك احتفالا بالحدث الهام . أمر لا يصدق . أمر اجمل من الخيال . هل باستطاعته ان يصبر فينتظر تلك الايام التي تفصله عن اللحظات التي ستطأ قدماه فيها أرض الجزائر ، تلك الارض التي امتزجت بدماء مليون شهيد ؟ كنت أراه في تلك الايام يترنم بالنشيد الوطني الجزائري ، وكانت الكلمات والالحان تنبض في صوته ، تحمل نضارة الولادة الاولى .

منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٢ ظلت الثورة تعيش في نفسه وفي « الآداب » ، وحين انتصرت ، حق له أن يشارك بانتصارها ، كواحد من ابنائها فيقول : « البشرى لنا ايتها الجزائر العظيمة ، يا ارض البطولات الخالدة » . و « تلمس قدماي ارض الجزائر فيتحقق الحلم الاثير ، وتغيم عيناي بغشاوة من دموع حين يرف فيهما علم الجزائر فوق بناء المطار . لقد ولدت اذن بنت المخاض العسير » . هذه الكلمات كانت اعجز من أن تصور طفرة السعادة الحقيقية التي كان واقعه يعيشها .

من أرض الجزائر ، حمل لي زجاجة صغيرة مملوءة بالتراب . تلك كانت هديته ، أجمل هدية قدمها لي . وكان يعرضها على من يزورنا من الاهل والاصدقاء . اكنا سذجا ؟ ربما اعتقد البعض ذلك . أما نحن ، فكنا نشم رائحة دم مليون شهيد مجبولة بالتراب ، ونحس فيه نبض اللهفة والالم ونشوة النصر واختلاجات اللحظات الاخيرة لشباب نذر نفسه للموت من اجل أن تحيا الجزائر .

* * *

شهدت « الآداب » خلال الخمسينات تفجر الثورة العربية في وجه الهجمات الشرسة للاستعمار والرجعية العربية . فمقابل نوري السعيد ، والعدوان الثلاثي ، كان المارد العربي يؤمم القناة ، وينتصر على العدوان ، ثم يحقق أول حلم راود الامة العربية وهو الوحدة . كانت «الآداب» حاسمة الملامح . ففيما كانت تخوض معارك ضارية مع أعداء الثورة على الصعيد الثقافي ، كانت تواكب الثورة الصاعدة ، الثورة الامل .

قلت له ذات مرة ، وكانت افتتاحيته مليئة بايمان لا يحد بقدرة هذه الثورة : « كلامك هذا سوف يثير شكوكا . انت تعلم ان معظم الصحف مأجورة . أخاف أن تلحقك التهمة » . قال : « هذه قناعتي . وقناعة ملايين الحناجر التي تسمعين كيف تتفجر . هل هي مأجورة ؟ لماذا لا يمكن ان اكون واحدا منها ؟ هل خوفي من تهمة باطلة ينبغي ان يحول بيني وبين ما اراه واجبا متمما لرسالة «الآداب» ؟ » .

مضت سنوات ، وضعف المارد لكثرة ما اصابه من سهام ، وتخلى عنه الكثيرون . صمتوا او هاجموا . وعلى الرغم من الانتقادات التي كانت « الآداب » تواجهها ، ظلت وفية لذكراه ، معترفة بحقه كرمز لاجمل وانبل واشجع سنوات عرفتها حياتنا .

حدثان في تلك الفترة لا يمكن نسيانهما : الوحدة والانفصال . في الاولى تتحقق السعادة والحلم ، وفي الثانية الهزيمة وبدء الانهيار والالم .

* * *

عجيب امر هذه الامة التي ننتسب اليها ، والتي ، على رغم ما يلحقنا فيها من مآس وآلام ، نظل متحدين بها ، عاشقين لها ، مؤمنين بمستقبلها . ان صمودنا هذا الطويل ، صورة لصمودها ، وعنادنا ، مثال لعنادها . ما يكاد السهم يصيب عضوا منها ، حتى يخيل لنا انه أصاب منها المقتل ، فاذا هي تنتفض في مكان آخر من هذه البلاد الشاسعة ، فتضمد جراحها ، وتنتصر على الموت وتستأنف المسير .

* * *

عام ٥٨ ، اندلعت أول ثورة في لبنان . كان هذا البلد القوي الضعيف هدف الاستعمار . ففي بعض مناطقه ، كانت تنطلق وتتأجج أعمق وأعنف دعوة لتأييد الوحدة والاشتراكية . وكانت نواة ثورة واعية شاملة تتكون فيه لتمتد الى سائر أقطار العروبة . وفي غمرة الزهو والانتصار ، وقد حملت « الآداب » الكثير من هذه الملامح ، ضرب الاستعمار ضربته ليقتل الرضيع في مهده . ففي الوقت الذي كان لبنان يحضن الثورة ، كانت الاحلاف الرجعية في الداخل والخارج تتآمر . وحدث هذا الانقسام الطائفي المريع وشهد الشعب تذابحا لم يعهده من قبل . توقفت « الآداب » في تلك الاثناء . فقد

كان مقرها في قلب النار . ولكن نشـــاط رئيسها لم يتوقف . انضم الى العناصر المؤيدة للثورة يمدها بما يمكن للكلمة أن تفعل ابان الحرب . كان يعتبر نفسه مجندا ، معرضا لجميع المخاطر التي يتعرض لها المقاتل . قال لي ذات مساء ، وكانت أصوات الرصاص تلعلع : « ساعـة وأعود . سأرسل مقالي الى الجريدة » . قلت له : « ولكننا لن نربح معركة بكلمة » . اثاره تعليقي . كان جادا في مهمته . كان يؤمن بأن الكلمة معادلة للبندقية ، ينبغي أن يمشيا معا .

وكان يحزن لاضطراره الى توقيف « الآداب ». ولكنه كان يقنع نفسه بأن كل صحيفة تعبر عن أهدافه ، هي صحيفته . وحين انتهت المعركة ، ضمت « الآداب » هذه الكلمات ـ الشهادة لفترة ما كنا نتوقع يوما أن بذور الشر فيها سوف تنمو لتتفجر بعد سبعة عشر عاما حربا مدمرة .

خرجنا من المعركة مجرحين . وخسرت « الآداب » بعضا من كتابها وقرائها في الداخل . لقد أفرزت المعركة الاصوات . وحددت ملامحها . المهم ان المجلة استأنفت سيرها ، وتجاوزت وجوها كانت مخادعة ، وأخـرى محايدة ، لتؤكد التزامها بقوى التحرر والثورة في الوطن العربـي .

لم يكن هذا الالتزام يسيرا في بلد كلبنان . بل كان الثمن باهظا أقله انك تعيش في بلد تحمـل في نفسك جراحاته ، من غير أن يصيبك ، كمـواطن ، شيء من خيراته . كان هذا الشعور ينمو مع الايام ، وقد تفجـر فيما بعد . وكان فريق آخر يعلل ذلك بعدم انتمائنا الى لبنان ، وبامتداد جذورنا الى الخارج ، الى الوطن العربي . لم يكن التشخيص صحيحا . كان انتماؤنا للبنان انتمـاء حقيقيا ، وحبنا له حبا عميقا ، حب من لا يجـد السعادة الا في زاوية معينة من العالم يختارها وفي بيت معين من جميع البيوت ، هو بيتك . ولكن نظرتنا للبنان تختلف . أجل ، كنا نحبه في ذاته المنفتحة ، في جذوره الراسخة المتغلغلة حتى أعماق العروبة . كان عالمنا كبيرا .

ذات يوم من هذا العام دخلت مكتب « الآداب » . كانت أصوات هرج وصياح لم أسمعهـا من قبل تنبعث منه . فتحت الباب فلم أصدق ما تراه عيناي . رأيتـه وسط عدد من الشبـاب يصفق ويغني ويضرب الارض بقدميه . ركض نحوي وأحاطني بذراعيه وأخـذ يقبلني وقد ترقرقت الدموع من عينيه . قال لي : « تعالي ! انها أجمل أيام العمر . لقد انتصرنا أخيرا . لقـد أثمـرت الثورة » . ثم هدأوا . وعرفني على أصدقائه . كـان بعضهم من الشعراء المنفيين من العـراق يعيشون في لبنان ، وكنت أعرفهم ، وبعضهم الآخر في طريقهم الـى المنافي ، أو هم من الهاربين من سجون التعذيب .

قبل ذلك بأيام ، كان حزيننا لان المعركة التي خضناها في لبنان كانت توشك أن تنتهي بجراحات وبلا مقابل . وها هو الآن سعيد كأشد ما يمكن للمرء أن يعانق السعادة . لقد أعطته هذه الامة تعويضا . وكمرآة لنفسه ، ولجيله ، عكست « الآداب » هذا المنعطف الخطير من تاريخ العرب ، يوم قامت ثورة ١٤ تموز في العراق .

* * *

لماذا كتب على هذه الامة ، في هذه السنوات من عمرنا ، أن تشهد كل هذا التناقض المريع والمدمر حينـا والرائع والخلاق حينا آخر ؟ ننام على واقع ، ونستيقظ على واقع آخر . نحلم حلما جميلا ، ونحقق زمنا بشعا . نمشي مع هذا التيار ، نواكبه ، نحميه بعيوننـا وقلوبنا ، ثم يأتي الاعصار فيطيح به . كأمواج البحر كانت حياتنا ، زاخرة ، متلاطمة . كان البحر ، على امتداده ، مجـال أحلامنا ومربع أمالنا . ولكن الشاطىء كان هنا في آخر المطاف ، يحد أفقنـا ، ويختم كل شيء . ولم يكن الشاطىء آمنا .

لا أذكر يوما انه غفا الا واصوات الراديو ما تزال مرتفعة . كان عليّ دائما أن أسكت أزراره . وكـان عليّ غالبا أن أهزه في الليل لاوقظه . كانت مآسي النهـار واحزانه تتجسد ليلا كوابيس مريعة تربض على صـدره وتضيق عليه الانفاس فيصرخ ، فألقـاه بين ذراعيّ ، واضيء النور ، فيقص عليّ كابوسه ، كابوس هذا الوطن ، وهذه الامة التي تغلغل حبها في كل ذرات كيانه ، فكانت هي مقياس سعادته وشقائه . وكان هذا الكابوس الليلي يتجسد ، بعد تفكير معذب ، في موقف صريح وحاسم تجاه الاحداث تعبر عنه « الآداب » افتتاحية أو قصة .

هذه الكوابيس ، عرفها ، يوم نزلت الصاعقة على رأس العرب ، عام ١٩٦٧ .

في ٥ حزيران كان في القـاهرة . ولايام ، ظل يعتقد أن النصر حليفنا . ثم انكشفت له الحقيقة . قالت لي أختي المتزوجة من مصري ، أنهم نقلوه من الفندق الى منزلهم . لم يكن يصدق النبأ ، وكان حزينا حتى الموت . ثم قبع أياما سجين غرفة لا يسمح لاحـد بأن يدخلها . وانقطعت الاتصالات بيننا . وأغلقت المطارات . كان وحيدا ومهزوما وتعيسا . منذ ذلك اليـوم ، أصيب بضغط دموي ، وتسلل مرض السكري الى دمه . وقد شفي مع الايام من الثاني الذي كان نتيجة الحزن . أما الاول فما زال يعاني منه .

وحين عاد الى بيروت ، اغرق نفسه لينسى ، في عمل معجمي ظل أربعة أعوام يستغرق وقته وتفكيره ، وكان ذلك ، كما لاحظ الكثيرون ، على حساب مستوى « الآداب » .

وبالرغم من ذلك ، فانه لم يستسلم للهزيمة ، لان الشعب العربي لم يستسلم لها . وعاد الى المجلة يمنحها من فكره وقلبه وروحه ، مؤكدا لي ، المرة بعد المرة ، ان المجلة ستبقى ، فهي مجال تنفسه الوحيد : « لولاهـا

لاختنقت . انها حياتي ، وحياة آلاف الشباب الذين يعيشون حياتي » . وكان يترجم هذاالتعبير واقعا في افتتاحيات عديدة يرسلها اليه ، عبر البريد ، ادباء تعاملوا مع احداث الامة العربية كما تعامل هو . « لست بحاجة الى كتابة افتتاحية هذا العدد . لقد عبرت هذه القصيدة او هذه الكلمة او هذا المقال عن رأيي » .

لم يكن أي قرار نتخذه ، في تحديد موقف صريح ، يتم بسهولة. انه وليد ساعات وليال من التفكير والتدقيق، وان كان انبعاثه وليد انفعال سريع او رد فعل . في السنوات الاولى من « الآداب » ، كان الموقف يتطلب شجاعة وتضحية . ولكن الخيار كان محسوما . الابيض او الاسود . اما مع عناصر الثورة والوحدة أو مع الرجعية والتخلف والتجزئة . ولكن مع تقدم الايام ، أخذت الالوان تتقارب ، حتى كادت أن تمتزج أو هي امتزجت أحيانا بالفعل . واذ زال المستعمر الخارجي ، المكشوف الوجه والانياب ، راح ظل المستعمر الجديد ينعكس بألف لون بدءا من اللون الازرق والرمادي حتى بلغ أحيانا أن اصبح أبيض نقيا نقاء الثلج . وانهارت الثقة ، وانبدلعت حرب الاخوة الاعداء ، وتكدست الهزائم فوق رؤوسنا . وضاعت ظروف كان بامكاننا أن نستغلها ، وأهدرت طاقات عبثا ، وشرد الادب والفكر نتيجة التضييق والخنق للحريات في اكثر من موطن ، وعلى فترات مختلفة .

خلال هذه الازمات الطويلة ، عانت « الآداب » ازمات عديدة خانقة ، مادية ومعنوية . ولكن المستقبل كان لنا ، كنا بعد كل معركة ، نلقي الجلد الميت . وكانت فورات هذه الامة تمدنا بهذا الدم . انها أبدا ترفض أن تموت وان تدفن . فبعد الضربة الموجعة التي أعقبت كارثة ٦٧ ، انفجرت الثورة الفلسطينية فوجد فيها العرب الذين ما زالوا يؤمنون بالامل والمستقبل متنفسا لهم ، ووجدت « الآداب » فيها ومعها طريقا للصمود .

واكبتها لسنوات ، ودافعت عنها في أحلك الايام والظروف ، ثم التحمت بها كطليعة للثورة العربية الحديثة .

في أيام الحرب الاخيرة ، كان الامتحان العسير ، سقطت الاقنعة الكثيرة التي كانت تزايد وتنافق . أمام الخيار الصعب لاذت بالفرار . وظللنا مصرين على اصدار المجلة ، رغم الحمم والقذائف التي تهدد وجودنا .. الحقيقة ينبغي أن تعلن . وطبعنا عدة أعداد . ولكن الطرقات سدت برا وجوا . واختنقت « الآداب » بالمطبعة لعدة أشهر دون أن نتمكن من سحب ما طبع . كانت في قلب النار ، وكان الوصول اليها مستحيلا . خلال تلك الشهور التي طالت ، انصرف الى العمل الجماعي ضمن الثورة ، يشارك فيها بسلاح واحد لا يجيد استعمال سواه : الكلمة . ولكن الكلمة التي كان يصوغ منها بيانا او نداء او تحليلا لم تكن الكلمة التي اعتادها وارادها أن تفزو آفاق الوطن العربي . انها مثله، سجينة هذا الشارع الضيق الذي زرع بالموت والظلام والجفاف . ولايام عديدة ، خلال اكثر من عامين ، كان يقبع معنا في ممر ضيق من البيت لا يغادره أحيانا ليل نهار . القذائف تهاجم بيتنا من كل الجهات فتكسر زجاجا أو تقتلع واجهات أو تتجول الرصاصات في غرف نومنا وتستقر على الاسرّة أو تحفر لها مقرا في الجدران . الرعب ، كان كل رصيدنا . ويوما فيوما تنهار ارادة الحياة فينا والصمود .

« لا ، لن أموت هنا موتا مجانيا . ان صوتي يختنق، فأختنق معه . ان العالم يجهل قضيتنا . و « الآداب » ينبغي أن تحمل تلك الرسالة ، ينبغي أن تصدر من اية بقعة من الوطن العربي . كل أرض عربية ارضها . اما اذا سدّ هذا الوطن بابه ، فسأرحل الى اي مكان في العالم يرحب بصوتي » .

وقرر أن يرحل . اخترق النيران حتى المطبعة وحصل على نسخة من كل عدد صدر ولم يوزع . طالت غيبته . وكانت أصوات الانفجارات تتوالى وتصدي . اشتعل قلبي . ليس أسهل من التفكير بالموت في هذه العاصمة المريعة . وأكلني الندم . كيف تركته يذهب ؟ وحين عاد ، كنت كتلة من الاعصاب المنهارة . رأيته يحضر حقيبة يضع فيها بعض ملابس خفيفة . ويضع معها أعداده ويغلفها ويقول : عن طريق البحر سأرحل .

جمعنا . وردد علينا قراره : « لن أجبر احدا على مرافقتي . ربما كانت الرحلة عسيرة » . يومها بكيت . لا أريد أن أغادر وطني . رحل كثيرون ، وظللت انا مصرة على البقاء . هنا أنفقت عمري . وهنا بيتي ، وهنا أهلي ، فالى أين أرحل ؟ أي مصير ينتظرنا في الخارج ، وكيف نعيش ؟ حاولت أن أقنعه بأن الغيوم ستنقشع ، وتعود الينا حياتنا . أغريته بسعادته معنا ، رغم قسوة الظروف . هددته بتأنيب ضمير قد ينخره اذا ما تركنا ورحل . ربما لن نلتقي بعد . فقدت أعصابي ، فقدت منطقي ، فقدت اتزاني وأنا أحاوره لكي يعدل . اتهمته انه يحب مجلته أكثر من عائلته . ولم يعدل . حمل حقيبته وفتح الباب . لحقته . يا لعذاب تلك اللحظات . سماح يقفز من الغرفة المجاورة ، يعانق أباه ويرفض أن يتركه . « سأرحل معك » . ضمه اليه وبكيا معا . قال : « لا تترك أمك وحدها . ستكون رجل البيت » . ولكن الصبي اشد عنادا من أبيه . التصق به فاتحدا . ارادتين صلبتين ضد عاطفتي . ووجدتني مهزومة . ما نفع بيت بلا رجلين ؟ ما نفع وطن يرحل عنه أهله ؟

كانت الدموع تتساقط من عينيّ وانا أجمع ثياب سماح واضعها في حقيبة صغيرة . ووجدتني أضع فيها بعضا من ملابسي . انهما بيتي ووطني .. ورحلت معهما.

وأنا اغلق الباب ، حاصرتني فكرة دمرتني : هل سنعود فنفتحه ؟ وتذكرت ما كانت ترددة اختي المتزوجة من فلسطيني : « ما زلت احتفظ بمفتاح بيتي بيافا » .

وخفت من أن نصبح لاجئين ..

كم من الاحزان عرفنا ! كم من القلق عانينا ! كم من هواجس حاصرتنا . ليالي بأكملها لم نعرف طعم النوم . داخل الوطن ، كنا نشاهد الحرائق ونعيش مآسينا . والفناها ثم تآخينا معها فأصبحت جزءا من وجودنا البشع . أما خارج الوطن ، فقد كنا نتحمل الآلام بسادية : كان الوطن يحترق في نفوسنا ويتهدم ، فنتهدم معه .

يا وطني الحبيب ! أي جنون ارتكبته لكي لا افقد الامل بأن أعود اليك . لقد تركت فيك احدى فلذات كبدي رهينة بين يديك، حين رحلت . تركت « رائدة » في بيروت الملتهبة ، فانقطعت عنها وعن اخبارها أسابيع ... « أيام وأعود ، يا حبيبتي » . وبكيت تريدين اللحاق بنا . وضننت على مستقبلك الجامعي أن يضيع ، فرجوتك ان تصبري . ولكن أنا ، كيف أصبر ، كيف أبعد عن نفسي اشباح الحريق والموت ؟..

ايتها الحقيقة ، ايتها الكلمة التي ضمتها صفحات « الآداب » المهاجرة ، كم كان ثمنك غاليا . ها هو وجودك ووجودنا ، لاول مرة ، يتلاحمان ، يقفان معا ، ويشرعان صدرهما معرضين للموت والغدر ...

***

ثلاثة اشهر غبنا ، خلال حرب السنتين ، احسستها دهرا . (من قال ان انتماءنا الى هذا البلد غير حقيقي ؟) وها هو السيف الذي طالما رفعنا صوتنا لنبعده عن اخوة لنا في الوطن العربي يطالنا ، فيخنق صوتنا ، ويحد من حريتنا ، ويضيق علينا الانفاس . الحقيقة ، كل الحقيقة ، بعد خمسة وعشرين عاما من النضال ، لا نستطيع ان نقولها ، بل نقولها وتحذف ، ونقولها فتحذف ، ثم نهدد بالاغلاق ... فهنيئا لبلد الاشعاع والحريات !..

***

لم يكن الهم القومي في اتخاذ المواقف هو فقط ما كان يقلقنا في مسيرتنا . كانت هناك هموم اخرى يخيل للوهلة الاولى انها منفصلة عن قضيتنا فيما هي تتعلق بها في الصميم . من هنا كانت المعارك التي خاضتها « الآداب » منذ صدورها ضد دعاة الحرف اللاتيني واللهجة العامية (وكان القصد منها في لبنان بنوع خاص القضاء على الفصحى ، وبالتالي على التراث العربي وعلى وحدة العرب في آخر المطاف) . كما تصدت لمجلات ظاهرها ثقافي ، وغايتها الحقيقية الدس على الثقافة العربية تراثا وحاضرا . واني ما ازال اذكر ذلك اليوم ، الذي دعيت فيه الى المحكمة . كان شيئا فظيعا ، ان يقيم رئيس تحرير مجلة ذات اتجاه مشبوه الدعوى علي بحجة فضح المجلة وسوء الظن به . تناقشنا طويلا ، هل نمثل ام نتخلف ؟ وشاركنا في النقاش اصدقاء لنا وارسل لنا بعض الكتاب وبعض القراء يدعوننا الى الصمود .. وقررنا أن نجابه ونتصدى . ان الحق معنا .. وعند اول جلسة انهزم الخصم . كانت حججنا ووثائقنا ومستنداتنا تنشر يوميا في الصحف القومية التي ساهمت معنا في الحملة ، مما اضطر المجلة للتوقف : اذ بانت انيابها العدوة، وانتشرت رائحة الدولارات منها .

قلت له ذات يوم ، ونحن نتصفح مجلة شعرية تصدر في بيروت : ينبغي الا تبدي رأينا بها . سيقال اننا نحاربه ، لنبقى وحدنا في الساحة . ثم يرد . تابع القراءة . قال لي بعد أن انتهى : تخلي عن ضعفك وانهزاميتك . ليست القضية شخصية . انها قضية عامة . قضية مفهوم للثقافة العربية . من هذا المنظار يبدو اي تردد او تبرير خيانة لمفهوم الفن القومي الذي ندرنا انفسنا له في هذا الظرف التاريخي الذي تجتازه الامة . اننا مسؤولون امام قرائنا وكتابنا .

لقد خلقت هذه المجابهات لنا عداوات عديدة ، شخصية وعلى صعيد رسمي . وكان من نتائج هذه المجابهات ، في بلد كلبنان كثرت فيه الارتباطات بالاجنبي، اننا صنفنا ، مجلة غير لبنانية (وهذا غير صحيح)، لاننا مجلة عربية (وهذا صحيح) .

اقرئي هذه القصة . واقراها . ما رايك فيها ؟ وادلي برايي ، فيناقشه . في الماضي ، كان يقنعني اذ كنت أتتلمذ على يديه . كان يشرف على تثقيفي ، القديم والجديد . الكتب العربية والاجنبية . كان يطبق علي موازينه الدقيقة في مفهومه الملتزم للثقافة العربية . ليس كل القديم . بعضه دفنه الزمن . أما الباقي فخالد . ولكن ينبغي أن ينظر اليه بمنظار العصر . انه هو الذي يمدنا بالحياة ، بالاصالة ، بالشخصية المميزة . نمتصه ونمتزج به ، فيغنينا . الانطلاقة الاولى من هنا . وتكبر الساق مليئة بالنسغ وتتفتح الاوراق . هنا يأتي دورنا في المعاصرة ، في الانتقال من الواقع دون التطابق معه لاستشراف المستقبل . كيف توفق بين التراث والحداثة، أقول ؟ ليست العملية عملية توفيق . وانما هي عملية اختيار وامتصاص حذرة . الانغماس في الماضي يوقعنا في الرجعية ، وتجاهل الواقع يبعدنا عن عصرنا ، عن هموم مجتمعنا . ينبغي أن ننفعل به حتى نطوره . أما الآداب العالمية فضرورية لاستكمال ثقافتنا الفنية خاصة تلك الفنون المستحدثة في أدبنا كالقصة والرواية . ليس العيب ان نقبل عليها ونترجمها . انها ملك الانسانية ، وبالتالي ملكنا . لقد قدمنا في الماضي قسطا وافرا واسهمنا في دورنا الحضاري . ويحق لنا ، اليوم ، أن نأخذ ، بعد الكبوات التي الحقها بنا الاستعمار . ولكن المهم ، الا نصبح نسخة مكررة للاخر (كأكثر من مجلة صدرت في بيروت) . ان نظل نحن ، ولكن اشد تألقا وانفتاحا وغنى . وهكذا عكست « الآداب » وهي تقدم الدراسات العصرية لتراثنا القديم ، آخر نماذج الدراسات الفنية والجمالية العربية منها والعالمية . كما كانت تخوض

معركة الشعر الحديث وتؤكده وتشجع اشكالا جديدة للقصة القصيرة تغامر بدفع اصحابها ، كما تقوم بعملية استكشاف مستمر .

واعترف ان هذه العملية تكلفني شخصيا الكثير من العناء . ان « الآداب » تعتمد كثيرا على البريد . اي على ما يقوله لها القراء . وغالبا ما يكشف قارىء ما نفسه، شاعرا أو قاصا . فيطرق الباب . عشرات من القصص تردنا ، ومن انحاء الوطن العربي . انني اقراها حتى النهاية . انها عملية ضميرية . معظم كتاب « الآداب » الذين فرضوا انفسهم فيما بعد مروا بهذا الطريق ، منهم من تأخر ، ومنهم من سطع عند اول لقاء . لا ازال اذكر تجربتي مع « ارجوحة » محمد خضير ، يومها قال لي رئيس التحرير : هذا العددستتحملين انت وحدك مسؤولية القصص فيه . وكنا قد نشرنا لاكثر من اسم لم يعرفه من قبل قراء الآداب . وكانت قصة خضير جديدة ، موضوعا وشكلا وتجربة . واقرنني على انها مدهشة (وكان قد قراها قبلي ، واحتفظ برايه . ربما ليمتحن من جديد حسّي النقدي) لقد نجحت تجربتنا معا . واحسست بسعادة كتلك التي عاشها المؤلف .

وقال لي : اننا مسؤولون ، مراقبون . دققي في الاختيار . ومن بين عشرات القصص كنا نختار اربع قصص او خمسا يعاد النظر فيها ايضا . لماذا ، وقد عرفنا الكتاب المجيدين ، لا نعتمد عليهم فنستكتبهم ونوفر على انفسنا جهدا ووقتا ؟

ـ لاننا اولا لا نستطيع ان نتحمل الدفع لكل من نستكتب .

ـ لاننا ثانيا سننقطع عن هذا الشريان المتجدد ابدا ، المتدفق بدم نقي ورؤية جديدة . معهم ، لن يصيبنا الهرم ، سنظل قادرين على مواكبتهم وتفهم همومهم الفنية . يوما فيوما نودع القديم ونستقبل الجديد . ولكي لا نخون الفن العربي الجديد ، نتابع ، ونحن نلهث ، آخر الانتاج العالمي الحديث . ان عملية المقارنة ضرورية لتحديد موقفنا .

لسنا في المختبر وحدنا . ان القراء يناقشوننا الراي . كثير من الرسائل تحمل نقدا او وجهة نظر في هذا الكاتب او ذاك الشاعر من دون ان يطلب نشر الراي . انها مصارحة ، او اقتراح ، او دعوة الى تبني هذا الموقف او ذاك . تحس ، وانت تتابعهم ، بتلك العلاقة الانسانية الرائعة التي تربط افراد امة واحدة . لكأن هذا الكاتب يعرفك منذ امد بعيد . يقسو عليك او يلين ، ولكنه في كلتا الحالتين يحبك .

رسائل الكتاب والقراء ، نافذتنا على اية بقعة وجد فيها عربي يقرأ . من خلالهم تفلفلت هموم الوطن كله في نفسنا . معا نشارك في عملية تثقيف ذواتنا وتثقيف قرائنا . نقدم افضل ما قرأناه . ويلفتون نظرنا الى افضل ما قرأوه . وبفضل هذا التبادل تظل العلاقة قائمة بيننا ، ويحس كل طرف انه مسؤول عن الآخر .

* * *

واليوم ، نخوض ، كمجلة ثقافية ، صراعا غير متكافىء الفرص مع المجلات الثقافية الاخرى ، الرسمية بشكل خاص . ليست هي مشكلة حديثة تواجهنا ، ولكنها اليوم اعمق تأثيرا . فتلك المجلات انيقة ، جميلة ، ذات بشرة بيضاء ، تضم اشد الاسماء تألقا . ونحن تغلب علينا البشرة السمراء ، والتكثيف في المادة والطباعة ، والصعوبة في استبقاء المشهورين . كيف استمررنا ؟ وكيف سنبقى ؟ واي اغراء نقدم ونحن لا نملك أي سلاح ، حتى سلاح ان ندخل بكامل حريتنا هذا البلد او ذاك ؟ ان كل عاصمة قادرة على محاربتنا ، اذا شاءت ، او الحد من انتشارنا لصالح مجلاتها الاقليمية ، بفضل شبكات التوزيع الرسمية او شبه الرسمية عندها .

بلى ، نملك اغراء واحدا : الحرية . اننا نستطيع ان نقول لا ، وخاصة حين ينطق بها كتابنا ويطلبها قراؤنا . لا ، حين تكون هذه الكلمة معادلة لوجود برمته ، حياة بأكملها . لا ، في وجه اية سلطة قامعة ...

ولا اظنني بحاجة هنا لان اذكر مواقفه في المؤتمرات، دفاعا عن حرية الاديب العربي ...

اغراء آخر نقدمه . ابوابنا مشرعة بلا اقليمية . شعراء هذا العدد اكثرهم من المصريين ، نكتشف ذلك ونحن نقرأ العدد صادرا . هذا العدد يضم قصصا عراقية فقط . لا بأس ، ما دامت هي افضل ما وردنا .. شعراء الجنوب يحتلون حيزا كبيرا . اجل ، انهم اليوم يحملون قضية ، وشعرهم جيد . الفلسطينيون « يستولون » على « الآداب » ، وأين تراهم يذهبون وهم مطاردون مذبوحون؟ السوريون ، التونسيون ، الجزائريون ، المغربيون ، السودانيون ، اليمنيون ، الليبيون جميعهم وجدوا لهم ملجأ . الافضلية لمن يكون نتاجه ، على صعيد الموضوع ، اقرب الى همومنا القومية والانسانية ، وعلى صعيد الفن ، اقرب الى الجودة .

* * *

والآن ، وقد انقضت خمسة وعشرون عاما على نضالنا ، اراك يا رفيقي تستعد لمتابعة المسيرة ! ولكن الم يصبك بعض التشاؤم او حتى اليأس ؟ الا تتردد قليلا ؟ الا تقف لتنظر الى ما صرنا اليه ، في معركتنا القومية : على عتبة الاستسلام ؟

اسمح لي اذن ، ان اعبر لك عن الحزن الذي يراودني كرفيقة درب لك : حزينة انا ، صباح هذا العيد ، لانني اشعر بأننا نحن ايضا ستذهب جهودنا في ربع قرن ضحية على مذبح التخاذل والاوهام ...

* * *

أعرف جوابك ، ذلك الذي قلته لي منذ لقائنا الاول : ان طريقنا طويل وشاق . وانت اليوم تضيف : أوتحسبين ان ربع قرن شيء من عمر أمة ؟ ان النضال يكتسب معناه وسط الهزيمة ، ومن قلب الانهيار ...

وانظر معك وانت تشير الى سماح : انه ينمو ويترعرع ويفوقنا طولا وطموحا . ذراعاه تزدادان صلابة وشدة وعنفا . عيناه تحدقان في الواقع وترفضانه وترفضان الهزيمة وترفضان الاستسلام وتخرقان المستقبل وتتفزان فوقه . يا ولدي ، لاجل هذه البسمة على شفتيك وشفتي جيلك ناضلنا ، لاجل هذا البريق من الامل الذي يتألق في عينيك وعيني جيلك ضحينا ، وصمدنا ، ظللنا واقفين رغم الوهن ، رغم الكبت ، رغم التعذيب والخيبة كي لا تجرف الهزيمة قاماتكم الطرية فيما هي تجرفنا...

ـ لماذا عدت من المدرسة يا سماح ؟

ـ لقد دعت الحركة الوطنية الى الاضراب احتجاجا على الزيارة المشؤومة .

ـ ولكن موعد الاضراب هو الغد ؟!

ـ أنت تعلمين ان الغد هو يوم العطلة العادي .

ـ واذن ؟

ـ قررت مع بعض رفاقي أن نضرب اليوم ، مشاركة منا في المعنى الحقيقي للاضراب .

* * *

الطريق نفسها ، طريق التمسك بالحقيقة والحرية والمبدئية والنضال ، هي التي ستقطعها اذن يا حبيبي ، يا أيها الجيل الذي ترفض أن تذل ، وترفض الهزيمة . فهل أمامنا غير ان نواكبك ؟

* * *

وانت يا رفيقي ، ما دمت محصنا بالامل ، مشحونا بطاقات أمة لا ينضب معينها ، فسأظل الى جانبك . معا ستكون الرحلة القادمة أقل قسوة . لقد كنت أبدا تنشد الوحدة . ولكنهم ما زالوا يحرمونك منها ، وما فتئوا يقسمون أجزاءنا . أجزاء أجزاء .. أما انت ، فقد استطعت ، بالرغم من كل السدود والحواجز والاعاصير ، أن تحقق وحدتك على أرضك الصغيرة المتواضعة ، ولكنها الارض الحقيقية ، الارض التي تحمل أشواق الضمير العربي النقي . من المحيط الى الخليج ، ومن المشرق الى المغرب ، تعانقت أجيال الشباب في رحلة صغيرة ، شريفة ، رحلة البحث فنيا عن الذات والحقيقة والحرية والوحدة والانسانية .

واذن ، فسنواصل الطريق ، نصرخ ونصرخ ونصرخ حتى تخرج أحلام الوحدة والحرية من رؤوسنا وأوراقنا وتتجسد على أرضنا الصلبة المحررة كأجمل قصيدة وأروع قصة !

وتحية عرفان للادباء الذين امدونا باللهب وسقطوا قبل ان يكملوا معنا المشوار ، سقطوا حزنا او تفجروا من الهزيمة والخيبة ، تحية وفاء للذين صمدوا معنا طويلا ثم اغتيلوا أو استشهدوا ، وتحية حب صادقة للذين ما زالوا يواصلون معنا المسيرة ، المقيمين منهم في الاوطان أو المشردين ، السعيدين أو المعذبين في السجون والمعتقلات ، وعهدا للجيل الذي سيكبر بأن لا نلقي السلاح حتى نبلغ الكرامة والنصر .

صدر حديثا

أتولد بيروت وجها جميلا !

للشاعر فؤاد كحل

طبوت جديد ذو نكهة خاصة ...

منشورات دار الآداب